

7

حكاية الصعلوك الأول

بقلم : أ. عبد الحميد عبد المقصود
رسوم : أ. إسماعيل دياب
إشراف : أ. حمدى مصطفى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

دقَّتْ صاحبةُ الْبيْت الأرْض بقدميْها فى غضبٍ ، فظهر فى الْحال سبْعةٌ من الْعبيد الأقْوياء ، بيد كُلٍ منْهم سيْفٌ مسْلولٌ ، وأحاطُوا بالْخليفة (هارون الرَّشيد) والآخرين ليقْتلوهم .

فقالتْ صاحبةُ الْبيْت :

- اتْركُوهم ، حتى أسْألهم عن حالهم ، قبْل أن تضْربوا رقابهم ..

فقال الْحمَّال مرْتجفا :

- ياسيدتى ، لم تقْتلينني بذنْب هؤلاء الصَّعاليك ، وهؤلاء التُّجَّار ، وأنا ماخالفتُ لك شرْطا ؟!

فزال غضبُ صاحبة الْبيْت قليلاً ، وقالتْ :

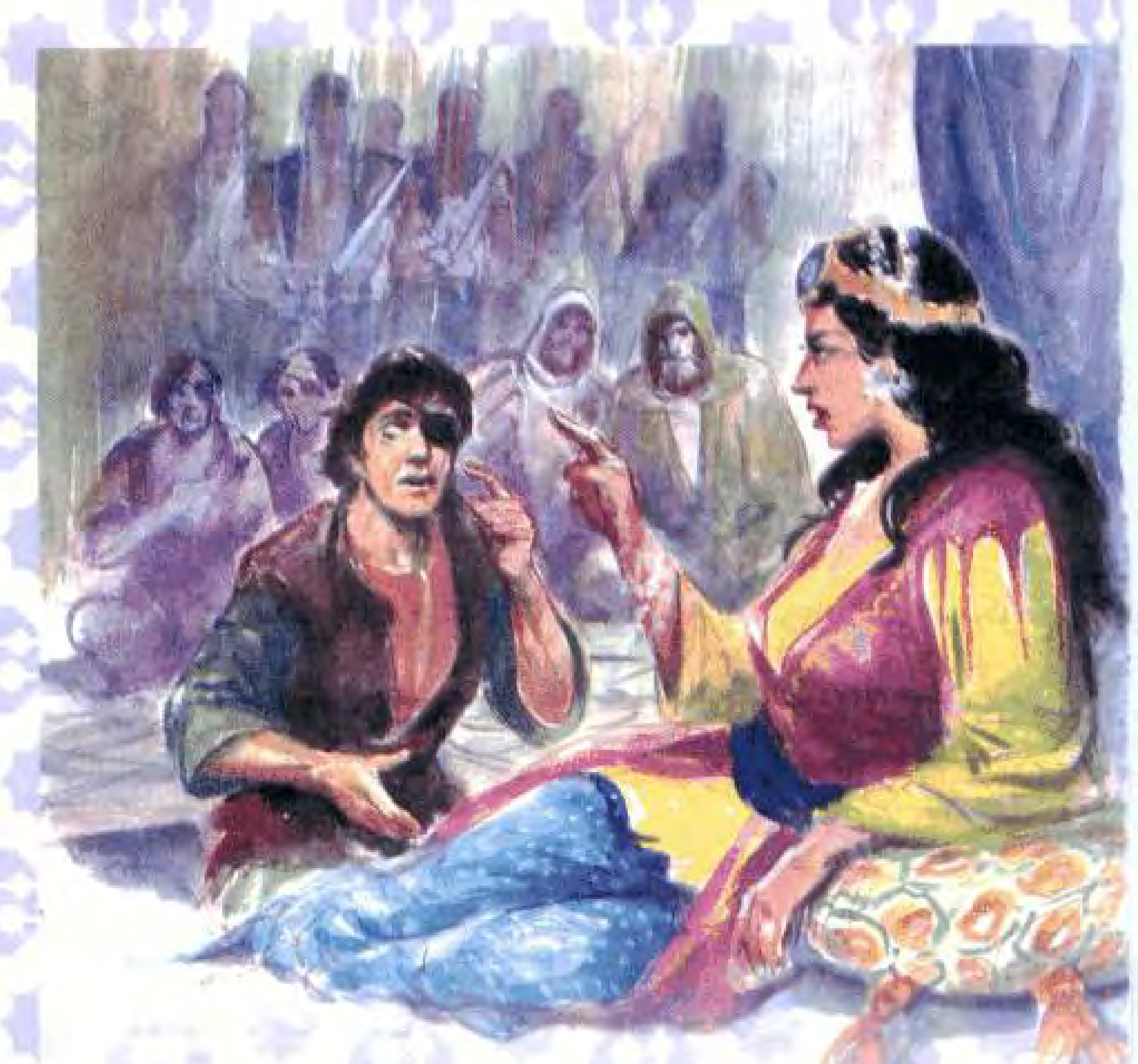
- لم يبْق من أعْماركُمْ إلاَّ قليلٌ ، فأخْبرونى أوَّلاً بخبركُمْ ، لم تجرَّأتُم على دُخول دارى ؟

فقال الْخليفةُ لوزيره (جعْفر) هامسا :

- ويْلك ياجعْفر ، أخْبرْها من نكُونُ ، وإلاَّ قتلنا هؤلاء الْوحُوش غدْرا ، ودُون ذنْب جنيْناه ..

فقال (جعْفرٌ) هامسًا :

- تمالكْ نفْسك يامولاى ، حتى نعْرف قصة هؤلاء السَّيدات الثلاث ، وسبب تصرُّفاتهن الْغريبة ..



وهُنا أشارتْ صاحبةُ البيتِ إلى واحدٍ من الصَّعاليكِ الثلاثةِ قائلةً :

- هل وُلدتَ أعور بالعينِ الشمالِ هكذا ؟!

فتقدمَ الصُّعلوكُ الأوّلُ منها قائلاً :

- أبداً ياسيدتى ، ولكنْ جرت لى قصةٌ غريبةٌ ، وهى التى تسببت فى تلفِ عيْنى .. قصةٌ لو كُتبت بالإبرِ على مآقى البصرِ ، لكانتْ

عِبرةً لمَنْ يعتبر ..

فتأثّرتْ صاحبةُ البيتِ من كلامه وقالتْ :

- كُلُّ واحدٍ منكُمْ يحكي لي حكايتَهُ ، وسببَ مَجيئه إلى بيْتي ، ثم يُملِّس بيَده على رأْسه ، وينْصرفُ إلى حاله ..

فتقدَّم الحمَّالُ قائلاً في عجلٍ :

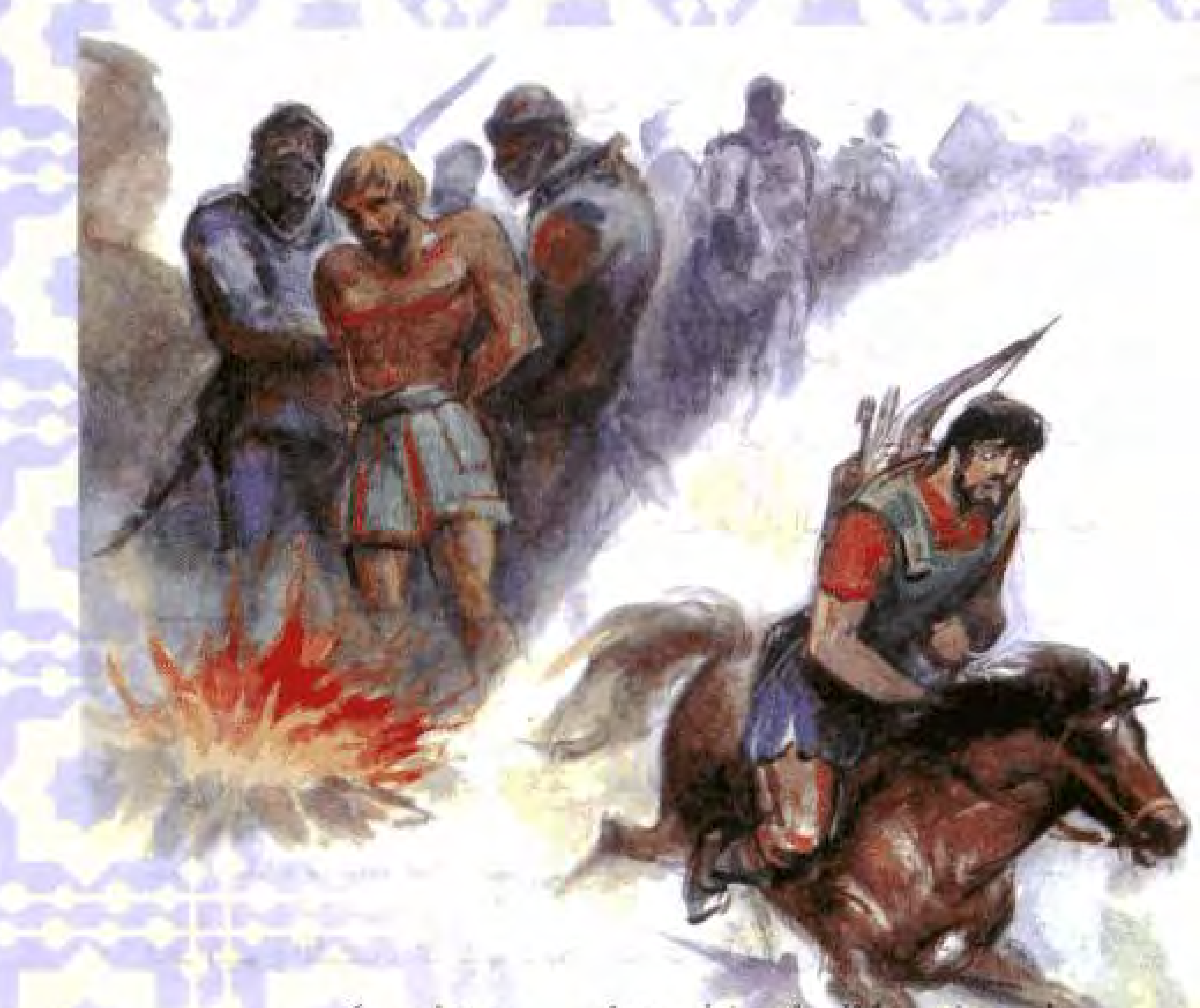
- لقَد استأجرتْني أُخْتُك من السُّوق لحَمْلِ مُشْترياتِها ، فلمّا جئتُ هنا صَعُبَ عليَّ حالُكُنَّ ، وعرضْتُ عليْكُنَّ أنْ أبْقَى معَكُنَّ لخدْمتكُنَّ ، ورِعاية شئُونكُنَّ ، وأكُون لكُنَّ بمَثابة الأخِ النّاصحِ المُعينِ ، ولمْ أُخلَّ بشرْطي ، حتى جاء هؤُلاءِ الصّعاليكُ وأُولئك التُّجارُ ، فثارَ غضَبُك بسَببِ فُضُولهِم ، وأنَا لاذنْبَ لي فيما حدَثَ ..

فقالتْ صاحبةُ البيْتِ :

- ملِّسْ على رأْسك ، واذْهبْ إلى حالكَ ، فلَمْ يعُدْ لنا حاجَةٌ إلى وُجُودك معَنا ..

فقالَ الحمَّالُ :

- لا أذْهبُ حتى أسمعَ قصصَ هؤُلاءِ الرِّفاق ، كما استَمعُوا إلى قصَّتي ..



وهنا تقدَّمَ الصُّعْلوكُ الأوَّلُ ، ليَحْكِي حكايَتَهُ قائلاً :

- إنَّ سببَ حلْقِ ذَقْنِي وفقْدِ عيْنِي الشِّمالِ لهُ قصَّةٌ طويلَةٌ وهأنَذا أحْكيها لكُمْ ..

لقدْ كانَ أبِي ملِكًا على مدينةٍ كبيرةٍ من مُدُنِ الرُّومِ ، وكانَ عمِّي ملِكًا على مدينةٍ أُخْرَى ..

وقدْ ولَدتْنِي أُمِّي في نفْسِ اليوْمِ الذي ولَدتْ فيه زوْجةُ عمِّي ابنَها ..

وقدْ مضتْ سنواتٌ كثيرةٌ ، كبرتُ أنَا وابنُ عمِّى خلالَها ، حتَّى صرْنا شابَّيْنِ ، ونشأْنا مثلَ الأخوينِ الْمُتحابَّيْنِ ، وكانَ كلٌّ منَّا يزورُ الآخرَ فى مملكَةِ أبيه ..

وسكتَ الصُّعلوكُ الأوَّلُ متنهدًا فى ضيقٍ ، ثم أضافَ قائلاً :

- وذاتَ يومٍ كنْتُ فى زيارةٍ لابْنِ عمِّى فى قصرِه ، فأكرمنى غايةَ الإكْرامِ ، وألحَّ علىَّ أنْ نخرُجَ فى رحْلةِ صيدٍ إلى الصَّحْراءِ الشَّاسعةِ الْممتدَّةِ خارجَ حدُودِ الْمملكَةِ ..

وكانتْ هذه الصَّحْراءُ مأوًى للُّصوصِ وقُطَّاعِ الطُّرُقِ والْخارِجينَ علَى الْقانُونِ ، الَّذينَ كانَ عمِّى يُطْلقُ عليهِمْ (الثُّوَّار) والذين كانُوا علَى عداءٍ شديدٍ معَ عمِّى ، بسببِ حربِه لهمْ ، وتجْريدِ الْجيُوشِ لحرْبِهمْ والقضاءِ عليْهمْ ، لكنَّهُمْ كانُوا يلُوذُونَ بالْجبالِ الْوعرةِ ، التى يعْرِفُونَ طُرُقَها جيِّدًا ، ولذلكَ لمْ تُفْلحِ الْجُيُوشُ فى الْقضاءِ عليْهمْ ..

فلمَّا توغَّلْتُ أنا وابْنُ عمِّى للصَّيْدِ ، داخلَ الصَّحْراءِ ، رأَى ابْنُ عمِّى غزالاً ، فانْطلقَ خلْفَه يُطارِدُهُ ، ومنْ سوءِ حظِّه أنَّ الْغزالَ قادَهُ إلى معاقِلِ اللُّصوصِ والثَّائرينَ ، فلمَّا عرفُوا أنَّه ابنُ الْملكِ أسرُوهُ وقتلُوهُ ، وتمكَّنْتُ أنا منَ الْفرارِ والنَّجاةِ بصُعُوبةٍ ، لكنَّنى لمْ أجْرؤْ



عَلَى الْعَوْدَةِ لِمَمْلَكَةِ عَمِّي ، لأُخْبِرَهُ بِمَا حَدَثَ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَقْتُلَهُ الصَّدْمَةُ .. وَبَدَلاً مِنْ ذَلِكَ عُدْتُ إِلَى مَمْلَكَتِي ، لأُخْبِرَ أَبِي بِمَا حَدَثَ ، لِيُجَرِّدَ جَيْشًا وَيَجْعَلَنِي قَائِدَهُ ، حَتَّى أَثْأَرَ لاِبْنِ عَمِّي مِنْ هَؤُلاَءِ الأَوْغَادِ ..

وتوقفَ الصُّعْلوكُ الأوَّلُ ، ثم قالَ في حُزْنٍ :

- لم أكُنْ أدرى أنَّ هناك مصيبةً أكبرَ في انتظارى ، فعندَ وصولى إلى باب مملكةِ أبى ، سارعَ إلىَّ مجموعةٌ من الحُراسِ ، وكتفونى بالحِبالِ ، فتعجبتُ في نفسى ، وقلتُ : ترى ماذا حدثَ ؟! هؤلاءِ خدمُ أبى ، وأنا ابنُ الملكِ ، فلماذا يفعلون بى ذلكَ ؟!

ولمْ أطقْ صبرًا على ذلكَ ، فصحتُ فيهم : أيُّها الأوغادُ أنا ابنُ الملكِ ، فلماذا تفعلُونَ بى ذلكَ ؟!

فلم يردَّ علىَّ الحُراسُ ، وقادونى إلى قصرِ أبى ، فقابلنى أحدُ خدمِ أبى المخلصينَ وقال لى : إنَّ أباكَ قد غدرَ به الزَّمانُ ، وخانَه الوزيرُ فقتله ، وهو الآنَ يجلسُ متربعًا على العرشِ ملكًا للبلادِ . . فلمَّا سمعتُ ذلكَ أظلمتْ في وجهى الدُّنيا . . وقادنى الحُراسُ إلى الوزيرِ الخائنِ ، وكانتْ بينى وبينَه عداوةٌ قديمةٌ . .

وسببُ تلكَ العداوةِ ، أنَّنى منذُ صغرى كنتُ مولعًا بالصيدِ بالقوسِ ، وذاتَ يومٍ كنتُ واقفًا فوقَ سطحِ القصرِ ، وبيدى القوسُ ، فرأيتُ طائرًا ، فرميتُه بالقوسِ ، لكنَّ السَّهمَ أخطأَ الطَّائرَ ، وأصابَ عينَ الوزيرِ ، فأتلفَها ، وأنا لاأقصدُ ذلكَ . . ولمْ يجرؤْ الوزيرُ على معاقبتى يومَها ، لأنَّنى كنتُ ابنَ الملكِ ، لكنَّه أضمر



لى فى نَفْسه الشرَّ ..

ولـمَّا حَدثَ ماحَدثَ ، ووقفْتُ مُقيَّدًا أمامَ الْوزيرِ - الذى صار مَلكًا - نظَرَ إلىَّ باسْتهانَةٍ ، وقالَ لحرَاسِه : اضْرِبوا عُنُقَهُ ..

وسَكتَ الصُّعْلوكُ الأولُ ، ثم قالَ متألِّمًا :

- فلمَّا رأيْتُ الوَزيرَ الْخائنَ أمرَ حُراسَه بِقتْلِى ، قُلْتُ له مُستنكرًا :

بأىِّ ذَنْبٍ تأمرُ حرَاسكَ بِقتْلى ؟! ألَمْ تكْتفِ بِقتْلِ أبى ، وتشْرِيدِ أهْلِى ، والاستيلاء على الْعرشِ ؟!

فأشار الْوزيرُ الْخائنُ إلى عيْنِه التَّالفة وقالَ :

- وأىُّ ذنْبٍ أعظمُ من قلْعكَ لعيْنى ؟!

فقلت له :

- هذا خطأٌ وقعَ منِّى قضاءً وقدرًا ، لقدْ كُنْتُ صغيرًا ، ولمْ أتعمَّدْ فعلَ ذلكَ بكَ عمدًا ، ولاعنْ قصْدٍ منِّى ..

فغضِبَ الْوزيرُ الْخائنُ غضبًا شديدًا ، وقالَ لحُرَّاسه :

- قرِّبوا ذلكَ الأحْمقَ منِّى ، حتى أقْتصَّ منْهُ بنفْسِى .. فدفعنى الْحرَّاسُ إليْه بقوَّة ، فمدَّ الْوزيرُ الْخائنُ أُصْبعه فى عيْنى بقُوَّةٍ حتَّى فقأها ، فصرْتُ منْ هذهِ اللَّحظةِ أعورَ بعيْنى الشّمالِ ، كما تروْنَ ..

تأثَّرَ الْحاضرونَ بما سمِعُوا ، وأشْفقُوا على الصُّعْلُوكِ الأولِ ، وقالَتْ صاحبةُ الْبيْتِ :

- هذا سببُ فقْدِ عيْنكَ ، فماذا عنْ حلْقِ ذقْنكَ ؟!

فتنهَّدَ الصُّعْلُوكُ الأوَّلُ فى ضيقٍ وقالَ :

- بعْدَ أنْ فقأَ الْوزيرُ الْخائنُ عيْنى ، أمرَ حُرَّاسهُ أنْ يضعُونى فى صُنْدُوقٍ ، ثمَّ قالَ للسَّيَّافِ : خذْ هذا الشَّابَّ إلى خارجِ الْمدينَةِ ،



واشهر سيفك . ثم اقتله ومزقه قطعا صغيرة ، وألق به للوحوش حتى تأكله ، وأستريح من منظره . .

فحملنى السياف ، وسار بى حتى خرج بى من المدينة ، وهناك أخرجنى من الصندوق - وأنا مقيد - ليقتلنى كما أمره الوزير الخائن . .

وهنا صعبت على نفسى ، وتذكرت سابق عزى وذلى اليوم ،

فبكيتُ وتوسلتُ إليه أن يرحمني ويعفو عني ، وألا يقتلني .. وأخذتُ أذكّره بسابق مودتي له ، وإحساني إليه ، وأنه كان ذات يومٍ من رجال أبي ، وظللتُ أستعطفه بشعرٍ مؤثرٍ ، حتى رقّ قلبُ السيَّاف لي ، وأشفق عليَّ ، وقال لي في صوت تخنقه العبرات :

- ماذا أفعلُ ياولدي ، وأنا عبدٌ مأمورٌ ؟! لو لم أنفذ أوامر ذلك الوزير الطاغية ، أمر بقتلي .. إنَّ لوالدك الراحل كثيرًا من الفضل عليَّ والإحسان إليَّ ، ولكن ماذا بيدي الآن ؟!

فقلتُ له :

- تستطيع ياسيدي أن تطلق سراحي ، وأقسم لك إنك لن ترى وجهي بعد الآن .. لن أدخل هذه المملكة مرة أخرى ، ولن يراني أحدٌ ، حتى يخبر الوزير الخائن أنك أطلقت سراحي .. أطلق سراحي وعُد لتقول له إنك قتلتني ، وأطعمتني للوحوش ..

فلما سمع السيَّاف هذا الكلام ، فكّ قيودي ، وأطلق سراحي قائلاً :

- اهرب من هذا البلد ، لتفوز بعمرك ، حتى لاتهلك ، وتهلكني معك ..

فلما فعل السيَّاف معي ذلك ، شكرته ، وانطلقت هاربًا ، وأنا



لاأصدق أننى نجوت ..

فازداد تأثر صاحبة البيت لما سمعته وقالت :

- وماذا فعلت بعد ذلك ؟!

فقال الصعلوك الأول :

- سافَرْتُ ، حتى وصَلْتُ إلى مدينة عَمِّى حتَّى أَحْكِيَ لهُ ماحدث لأبِى ، وأَطْلُبَ منهُ أنْ يجهز جيْشًا للثأْرِ من الْخارجين على الْقانُونِ ، الَّذين قتلُوا ولَدَهُ ، وجَيْشًا آخرَ للثأْرِ من الْوَزيرِ الْخائِنِ على قتل أبِى . .

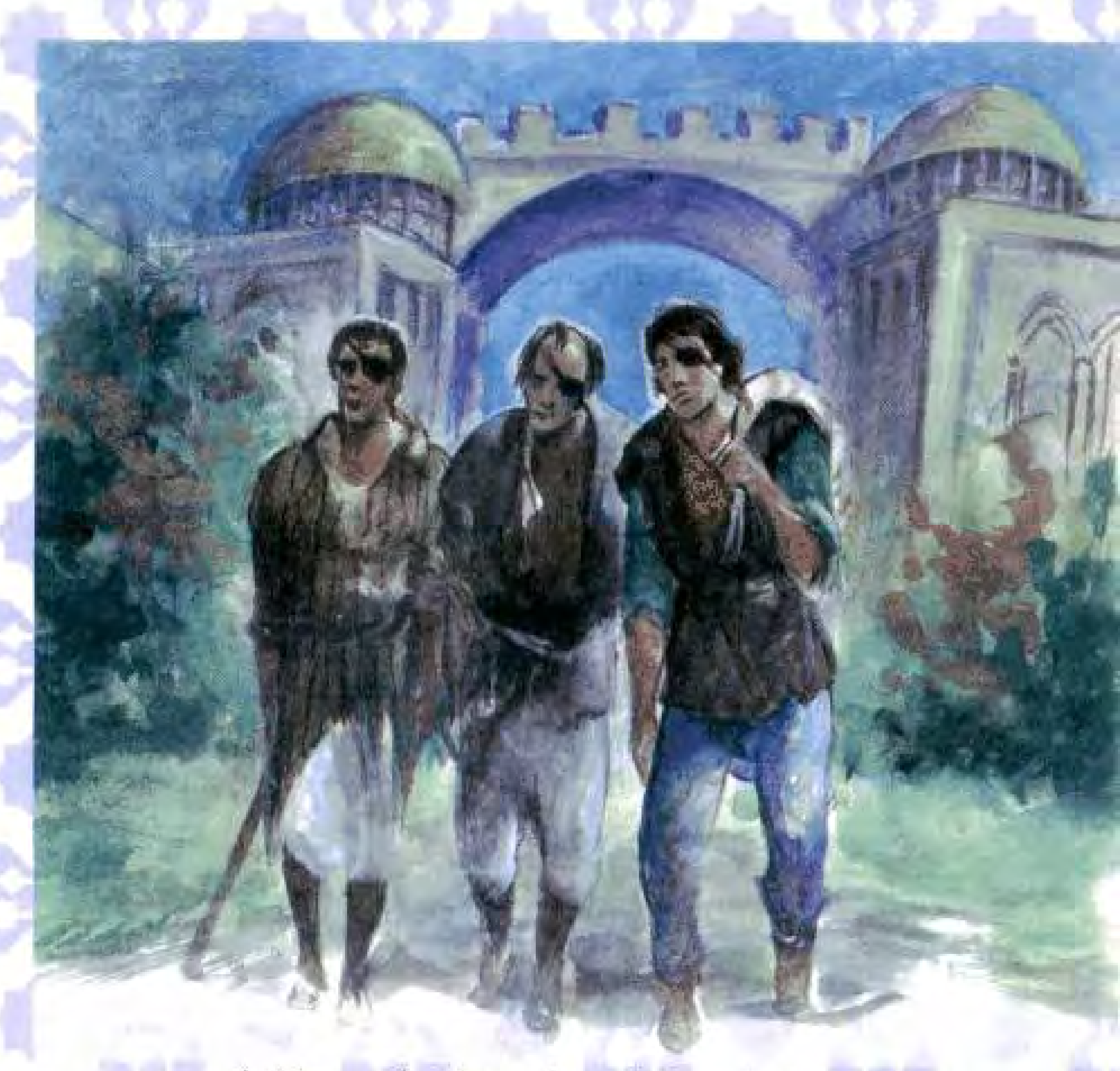
ولكنْ بمُجرد دُخُولِي إلى مملكة عمِّى سمعتُ دقَّات طُبول ، وأصوات أبْواقٍ تقْترب من الْمدينة ، فالْتفتُّ ورائى ، ورأيْتُ مُصيبةً أكْبر . .

رأيْتُ جيْشًا جرَّارًا يقْتحمُ مملكة عمِّى ، وكان الْوزيرُ الْخائنُ على رأْسِ ذلك الْجيْشِ الْجرَّار . .

وخلال وقْتٍ قصيرٍ تمكّن جيْشُ الْوزير الْخائنِ من مُداهمة مملكة عمِّى ، والاستيلاء عليها ، فى غفْلة من أهْلها ، ودُون أنْ يتمكّن جيْشُ عمِّى من إعْداد الْعُدَّة لمُلاقاتهم . .

وتمكّن الْوزيرُ الْخائنُ من قتْل عمِّى كما قتل أبِى من قبْلُ ، واستولى على مملكته أيْضًا . .

فلما رأيْتُ جنُود الْوزيرِ الْخائنِ يملئُون الْمملكة ، ويجُوبُون شوارعها ، خفْتُ أنْ يرانى أحدٌ ويتعرّفنى ، فيقُودنى إلى عدُوّى ، ليقْتُلنى . .



وهكذا تراكمت على النوائب والأحزان ، وفكرت فى حالى ، فلم أجد سوى حل واحد ينقذنى من الموت ، وهو حلق لحيتى ، حتى أغير ملامح شكلى ، فلا يتعرفنى أحد ..

وهكذا حلقت ذقنى ، وفررت من المدينة ، حتى وصلت إلى مدينة بغداد ، وكل أملى أن أجد من يوصلنى إلى قصر الخليفة

(هارون الرشيد) حتى أقص عليه ماجرى لى ولعائلتى، وأطلب منه أن يساعدنى فى الثأر من ذلك الوزير الخائن..

فلما وصلت إلى هنا، رأيت أحد هذين الصعلوكين، وقلت له: أنا غريب عن هذه المدينة..

وعلمت أنه هو أيضا غريب مثلى، وبينما نحن واقفان جاء ذلك الصعلوك الثالث وانضم إلينا، ومن الغريب أننا نحن الثلاثة عور بالعين اليسرى، وقد حلق كل منا لحيته..

ثم طرقنا باب بيتكم نطلب طعاما..

فقالت صاحبة البيت:

- ملس على رأسك، وانصرف لحالك..

فقال الصعلوك الأول:

- لا أنصرف حتى أسمع قصص رفاقى..

وهنا تقدم الصعلوك الثانى، ليحكى حكايته..

(يتبع)

رقم الإيداع : ٤٣٧٩

الترقيم الدولى : ٥ ـ ٣٤٦ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧